İbn Haldun'un İnsan Uygarlığı Bilimi ve İslam Düşüncesiyle İlişkisi

Dr. Hamdan Alahmad Alokleh[1]

Doi: 10.55918/islammedeniyetidergisi.1506853
Araştırma Makalesi | **Geliş Tarihi:** 28.06.2024 | **Kabul Tarihi:** 13.09.2024

Öz

İslam medeniyetinin en önde gelen alimlerinden ve Orta Çağ'ın en önemli filozoflarından biri olarak kabul edilen İbn Haldun, ekonomi, tarih, sosyoloji ve siyaset bilimi de dahil olmak üzere birçok alana önemli katkılarda bulunmuş, sosyoloji ve tarih alanında "Alemü'l-Umran" adı verilen yeni bir bilim ortaya çıkarmıştır. Toplumların sosyal, kültürel ve ekonomik gelişimi hakkındaki teorisini ortaya koymuş ve bu gelişimin nihayetinde insan topluluklarının nerede bulunduklarını, nasıl meydana geldiklerini ve meydana gelen haberlerinin geçerliliğini inceleyen El-Umran olarak bilinen şeyin oluşumuna yol açtığını vurgulamıştır. Yeni biliminde, toplumların tarihsel gelişimine ve bir dizi sosyal, çevresel, kültürel ve ekonomik faktörün medeniyetlerin gelişimi üzerindeki etkisine dayanıyordu. İslam düşüncesi ve mirası üzerindeki büyük etkisi, toplumlar ve davranışları hakkındaki analizlerinde de belirgindi.

Anahtar Kelimeler: El Umran, Evrim, İbn Haldun, İslam Düşüncesi, Sosyoloji, Tarih.

The Science of Human Urbanism According to Ibn Khaldun and Its Connection to Islamic Thought

Summary

Ibn Khaldun is considered one of the most prominent scholars in Islamic civilization, He contributed greatly to several fields, including economics, history, sociology, and political science. He formed a new science in the field of sociology and history called "urban science," where he presented his theory about the social, cultural, and economic development of societies. He stressed that this development ultimately leads to the formation of what is known as urbanism, which is the study of the location of human gatherings and ascertaining from the authenticity of the news that occurred and how it occurred, he relied in his new science on the historical development of societies, and the influence of a number of social, environmental, cultural and economic factors on the development of civilizations. His great influence on Islamic thought and heritage also appeared, and this is what appeared in his analyzes of societies and their process.

Keywords: Development, History, Ibn Khaldun, Islamic Thought, Sociology, Urban Science.

1Dr. Öğr. Üyesi, Mardin Artuklu Üniversitesi, İslami İlimler Fakültesi, Felsefe ve Din Bilimleri Bölümü ↑hamdanalokleh@artuklu.edu.tr, ORCID: 0009-0008-6501-2308.

علم العمران البشري عند ابن خلدون وصلته بالفكر الإسلامي

الملخص

يُعدُّ ابن خلدون من أبرز العلماء في الحضارة الإسلامية، ومن أهمّ الفلاسفة في العصور الوسطى، فقد أسهم بشكل كبير في عدَّة مجالات منها، الاقتصاد والتاريخ والاجتماع وعلم السياسة، وأوجد علماً جديداً في مجال الاجتماع والتاريخ أطلق عليه "علم العمران"، حيث قدَّم نظريته حول التطور الاجتماعي والثقافي والاقتصادي للمجتمعات، وأكَّد على أنَّ هذا التطور يؤدي في نهاية المطاف إلى تشكيل ما يُعرف بالعمران، وهو دراسة مكان التجمعات البشرية والتأكد من صحة أخبارها التي وقعت وكيف حدثت، وقد اعتمد في علمه الجديد على التطور التاريخي للمجتمعات، وتأثير جملةٍ من العوامل الاجتماعية والبيئية والثقافية والاقتصادية على تطوُّر الحضارات، كما ظهر تأثُّره الكبير بالفكر والتراث الإسلامي، وهذا ما بدا في تحليلاته للمجتمعات وسيرورتها.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون، علم العمران، الفكر الإسلامي ، التاريخ ، الاجتماع ، التطور.

المقدمة:

أراد ابن خلدون (٢٣٣١- ٦٠٤١م) الانتقال من مرحلة كتابة التاريخ بصورة تقليدية سردية إلى مرحلة تعتمد على الأسانيد والتحقُّق من صحة الخبر إلا أن ابن خلدون في الواقع ركزَ على نقد المتون وتقديمها على نقد الأسانيد، وجعل نقد الإسناد خاصاً بالخبر الشرعي ونقد المتن خاصا بالخبر البشري، وبقي معتمداً على هذه المنهجية الجديدة، حيث تقوم على أساس النقد، ولذا فقد عمل على إعطاء علمه الجديد طابعاً شرعياً لكي يكون مقبولاً في مجتمعه المحكوم بالصبغة والتوجُّه الديني، حيث لجأ لتبرير علمه الجديد بإسناده إلى القرآن الكريم، كلام الله سبحانهُ وتعالى.

ولكن ما سرُّ اهتمام ابن خلدون بالتاريخ، وما صلته بعلم العمران؟

ابن خلدون رجلٌ سياسيٌّ، مارس السياسة حيث عمل بمنصب صاحب "العلامة" في بلاط أبي إسحاق الحفصي في تونس، وهو منصب سياسي وتعني الإشراف على الوثائق الرسمية، وكانت وظيفته آنذاك تشير إلى رئيس المستشارين، وهي في المرتبة الثالثة ضمن وظائف الدولة بعد الوزير والحاجب، وكما تولَّى القضاء، ولكنَّهُ توقَّف عن كلِّ هذه الأعمال وممارستها؛ لأنَّه كان يرى بأنَّ حركة التاريخ وتسارع أحداثه وكلَّ ما يحيط بهِ من نزاعات على الحكم وانهيار الدول وغيرها من الأحداث، تستوجب العودة إلى الماضي ودراسته، حيث حاول تفسير الماضي بدراسة الماضي وتوقُّع المستقبل باستنباط قوانين علمية ثابتة، حيث كان ابن خلدون مدركاً لسيرورة التاريخ وتحولاته في زمنهِ وفي غيره من الزمان، فقد شهد في عهده تراجع الحضارة الإسلامية تراجعاً خطيراً، بشكلٍ جعله يستشعر حقيقة هذا الاخفاق وخطورته، فحاول الوقوف على أسباب أفول الروح الحضارية، وتيقَّن بأنَّ هذا التراجع لم يكن حادثاً عابراً أو ظاهرة مؤقتة، الأمر الذي

جعله يتأكَّد من ضرورة دراسة التاريخ ومحاولة ضبطه وفقاً لمنهجية صحيحة تستمدُّ صوابيتها من العلم، وتعمل على التخلُّص من أخطاء المؤرخين القائمة على غياب الموضوعية والتحيُّز للآراء والمذاهب، ولعلَّ أبرزها عدم إدراك المؤرخين بشكل صحيح للقوانين التي تخضع لها الظواهر الطبيعة، وظواهر الاجتماع الإنساني، لذا أوجد علم العمران.

العمران، العمران، هو دراسة الظواهر الاجتماعية، في مكان التجمُّعات البشرية، وتصحيح الأخبار التاريخية، هذه الظواهر التي تحصل في الاجتماع الإنساني، مثل التوحُّش والعصبيات، مبيناً بأنه علم مستقل بنفسه، وذو موضوع هو العمران البشري والاجتماع الإنساني،[2] وغيرها ممَّا يحدث في العمران، ثمَّ محاولة إسناد نتائجه التي يتوصَّل إليها إلى الواقع، معتمداً الملاحظة والتجربة، فالعمران كعلم هدفه دراسة "طبائع العمران"، وقد قصد ابن خلدون بالطبائع، الأمور الطبيعية لهذا الاجتماع الإنساني، فالظواهر العمرانية بدءاً من الاجتماع ووصولاً إلى ظاهرة الدولة هي سلسلة طبيعية، فالاجتماع طبيعة إنسانية أو ميزة تميِّز الإنسان عن غيره من الموجودات، كما أنَّ الحاجة إلى الحاكم أو من ينظم هذا الاجتماع ويديره أيضاً ميِّزة إنسانية، أي طبيعية تكمن في جوهرية النفس الإنسانية أو طبيعتها، أي إنَّ البحث الدقيق والنَفس الطويل والصبر عند ابن خلدون هو ما أوصله إلى علمِه الجديد، ولكنَّ ذلك لا يكتمل دون إلهام رباني لهُ، فالعقل بتصوُّر ابن خلدون هبة ربانية وقد أكرم الله بها الإنسان، فكان نجاح الإنسان باستخدامه له هداية إلهية ما كانت لتتمَّ لولا إرادة الله جلَّ جلاله.

وفي حديثنا عن طبيعة العمران البشريِّ وصلته بالفكر الإسلاميِّ، سنقوم بدراسة كيفية تطوير ابن خلدون لعلم التَّاريخ بوصفه مفكِّراً له حضوره المهم في الفكر الإسلاميِّ، وكيف استحدث هذا العلم الجديد؟ وماهي مصادره؟ وما هو جوهرهُ؟ وفيما يلي سنتحدَّث عن ثلاث أفكارٍ تعدُّ مرتكزاتٍ أساسيَّةً في النظرية الخلدونية، ويبقى البحث محاولة للإجابة عن تساؤل إشكالي مفاده: هل يوجد رابط ديني بين علم العمران عند ابن خلدون والفكر الإسلامي، وما هي طبيعة هذا الرابط ومنهجيته، وما مدى فعالية هذا الرابط في علم العمران؟

١٠ تطوير علم التَّاريخ:

نقل ابن خلدون علم التَّاريخ من حالة التَّجميع إلى حالة الفحص والتَّدقيق، ومن حالة السَّرد إلى التَّحقيق واستخدام الأسانيد، ثمَّ انتقل إلى نقد المضمون، وفقاً لمنهجيةٍ جديدةٍ أطلق عليها اسم "علم العمران"، وقد كان إبداع علمٍ جديدٍ مهمةً ليست سهلةً في زمن ابن خلدون، ذلك الزَّمن الذي كثرت فيه التيارات الدِّينية وتشعَّبت فيه المذاهب، فكان لابدَّ من أن يكون ذلك الطرح الجديد مقبولاً دينيَّاً ومتوافقاً مع الفكر الدينيِّ

2 يُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، 3991م)، 83.

السائد في ذلك العصر.

لقد كان علم العمران محاولةَ تجاوزٍ حقيقيّ لعلم التَّاريخ التَّقليدي، وفق منهجيةٍ جديدةٍ ورؤيةٍ أكثر وضوحاً وأكثر تخصُّصاً في النشاط السياسيّ البشريّ، وعملية تشكُّل السُّلطة، ومعرفة السيرورة التَّاريخية للسلطة والأمم، حيث أعلن طموحه بأن يكون مسعوديَّ زمانه، لذا فقد وظَّف العلوم والمعارف المتوفرة لتكون دليله في شقِّ طريق علمه الجديد، ولذا لم يكن أمام ابن خلدون إلا الاستناد إلى التراث الكلاميّ الأشعريّ، وإلى الجانب السياسيّ منه، وإلى فقه الأحكَّام السلطانيَّة، إذ يُعتبر الأقرب لما يمكن أن نسميه علم دراسة أو تكوين السُّلطة، بل ذهب إلى أنَّه أُلهم هذا العلم إلهاماً تشبُّهاً بالغزاليّ الذي كتب (إحياء علوم الدين) بعد عشر سنواتٍ من اتباع نهج التَّصوف والابتعاد عن السُّلطة،[3] فكلاهما عمل في السُّلطة واعتزلها متفرِّغاً للعلم، وكلاهما كتب عنها، وعن طرق انتقالها.

فقد بيَّن ابن خلدون أنَّ موضوعه الاجتماع البشريّ، وهذا الاجتماع يتطلَّب بالضرورة معرفة آليَّة تشكُّل السُّلطة، هذا التشكُّل الذي يقوم على أساس ما أسماه بالعصبيَّة، فقد تتكوَّن عدة عصبياتٍ في المكان نفسه، والزمان ذاته، فتتغلَّب إحداها على البقية، فتؤسِّس للمُلك، وفي حينها تدخل في سيرورة السُّلطة وحركيتها الدائريَّة، إذ تكون قوةً، ثمَّ تنتقل إلى المُلك، ومن المُلك إلى التنعُّم بالحياة، ثمَّ إلى التَّهلهل، فالانهيار، هذا السُّقوط لهذه العصبيَّة يتمُّ على يد عصبيةٍ جديدةٍ، وهكذا تستمرُّ حركة العمران، لذا فإنَّ الدولة عنده ظاهرة متطورة ومستمرة بالتغيُّر والتبدُّل عبر سيرورتها لحين زوالها، فنجده يقول: "إنَّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنَّما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حالٍ إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فإنَّ ذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول"،[4] فالدولة هنا مؤسسة دائمة التغيُّر، وإنَّ هذا التغير المستمر يفسِّر بشكلٍ واضحٍ أصول فكرة التحول التي تعدُّ فكرة مستمدة من التفسير القرآني للسلطة، إذ إنَّ "الدولة في القرآن الكريم، إنَّما تعني السلطة... والسلطة في القرآن الكريم لا تثبت أبد الدهر ولا تستقر على حال، فإنَّما تجيء وتذهب وتقوى وتضعف، وهكذا دواليك"،[5] بمعنى أنَّ ابن خلدون استخدم التفسير القرآني لمعنى الدولة والذي يشير إلى التعاقب والذهاب، كما ورد في قوله تعالى:)كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ(،[6] أو في قوله تعالى:)وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ(،[7] وهذا ما يفسِّر تقسيم ابن خلدون للدولة إلى أطوار تنتهي بانتهاء هذه

3 يُنظر: تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى، الجزء٦**، تحقيق، محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو(القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت)، ص ٦٠٢- ٧٠٢ بتصرف.

4 عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة** (بيروت: منشورات دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ص٨٢.

5 رياض عزيز هادي، **مفهوم الدولة ونشؤها عند ابن خلدون** (جامعة بغداد: مجلة العلوم السياسية والقانونية، العدد٣، ١٩٩٧م)، ص٩٧- ٠٨.

6 الحشر ٧/٩٥.

7 آل عمران ٣/ ١٤٠.

الأطوار، بمعنى أنَّه يشير إلى حتمية تاريخية في الزوال.

والعمران البشري حسب ابن خلدون يعبِّر عن حالة من التفاعل إذ إنَّ "المجتمع وتفاعل الأفراد مع الطبيعة المحيطة بهم عامل رئيس لنشأة العمران، وكلاهما جزءٌ لا يتجزَّأ من تاريخ نشأة علم العمران منذ تاريخ بداية خلق الإنسان (منذ كانت الخليقة)"،[8] بمعنى أنَّ المجتمع هو المسبب الحقيقي لظهور التاريخ، هذا التاريخ الذي بدوره سيكون عنصراً مهماً في قيام العمران، المرتبط بعوامل خارج السياق المجتمعي، فلا يكفي وجود بشر، كما لا يُكتفى بوجود تحولات تاريخية، فلابدَّ من عوامل للعمران، أو مصادر للفعل العمراني المعبِّر عن حيوية الإنسان وفاعليته في الأرض أو البيئة التي يستمدُّ منها عنصر الإعمار بما تجود عليه من هواء وماء وتربة وغيرها من العناصر المحفِّزة؛ لتخلق تفاعلاً بشرياً إيجابياً، كما أنَّ ابن خلدون في مقدِّمته تحدَّث عن علوم نقلية هي العلوم الدينية، وعلوم عقلية عمادها العقل والحواس،[9] وبين هذه الثنائية المنفصلة كان لابدَّ من وسيلة ربط بين الديني والعقلي – حسب رأي ابن خلدون- فكان علم العمران الذي أوصل العلمين السابقين ببعضهما عبر اطلاعهما على حياة الإنسان والطبيعة من حوله.

ولقد أشار ابن خلدون إلى أهميَّة علمه الجديد، وبأنَّه علمٌ لابدَّ للعامل به أن يتحلَّى بملكاتٍ ذاتيةٍ، ومؤهلاتٍ كثيرةٍ، يتوجَّب عليه معرفتها، فعلم التَّاريخ من العلوم الشريفة التي يجب على ممارسها التَّحلي بالخُلق الدينيّ، كما هو الأمر في علم الحديث، إضافةً إلى ضرورة أن يكون قارئاً لعلوم الأمم، ومدركاً تنوُّع الأمم واختلافها، وعارفاً معرفةً تامَّةً بالفِرق والمذاهب الدينيَّة، كما عليه أن يتحلَّى بمنهجٍ دقيقٍ في التَّحليل، وأن تكون لهُ رؤيةٌ استنتاجيةٌ.

٢. مصادر علم العمران:

كما أسلفنا بأنَّ علم العمران هو العلم المُطور والمنهجيُّ لعلم التَّاريخ، ولكنَّ ابن خلدون استند على أحكام الفقه السلطانيّ في تمحيص أخبار التَّاريخ وربطه بالسياسة الشرعيَّة، وأخذ عن علم الكلام والمذاهب الإسلاميَّة، واستفاد من مفاهيم البيعة والخلافة الإسلاميَّة، ففي الفقه السلطانيّ عاد إلى الإمام الجوينيّ، وأخذ من كتابه (غياث الأمم في التياث الظلم)، وكذلك رجع إلى الماوردي وأخذ من كتابه (الأحكام السلطانية).

ولقد ذهب هشام عليوان إلى أنَّ ابن خلدون قد "استلهم من فقه الأحكام السلطانيَّة عامةً، ومن كتاب (غياث الأمم) لأبي المعالي الجوينيّ خاصةً، ليس فقط من أجل استنباط مفهوم العصبيَّة القريب معنى وحكماً من مفهوم الشوكة. بل إنَّه استعمل الفقه السلطانيَّ ومفهوم الشوكة تحديداً، من أجل تسويغ مفهوم

8 عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون** (بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م)، ص٢٩٣.

9 يُنظر: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، الجزء الأول. تحقيق: علي عبد الواحد وافي (القاهرة: دار الشعب، ١٩٥٠م)، ٩٧٢.

العصبيَّة المذموم إسلامياً، عبر إبدال مفهوم الشوكة بمفهوم العصبيَّة، ثمَّ إدماج الأخير في المنظومة الفقهيَّة، وإسقاط شرط النسب القرشيّ ابتداءً ومآلاً، كيما يصحّ قيام الإمامة أو السلطنة بناء على العصبيَّة القبلية وما في معناها، انتقالاً منه إلى شرعنة علم العمران نفسه، المُتمحور حول مفهوم العصبيَّة"،[10] أي إنَّ ابن خلدون منح مفهوم العصبية بُعداً عاطفياً عبَّر عنه بالرغبة البشرية بتحقيق الاجتماع بشكلٍ يجعلها عاملاً مهماً بتشكيل التاريخ وحركته، كما استخدم ابن خلدون مصطلحات دينية إسلامية وفقهية في معرض حديثه عن علم العمران بشكل يشير فيه إلى مصدرية هذا العلم أو الأثر الديني الذي قاد لظهور العلم الجديد، فنجد مصطلحات مثل الضروري والحاجي، والكمالي وهي مصطلحات متداولة في علم الفقه.

ويرى ابن خلدون بأنَّ (الإقليم) من العوامل المهمة لنشأة علم العمران، ويقصد بالإقليم مجموع العوامل البيئية الحسية أو المادية، أي لابدَّ من وجود مكونات الحياة المادية لحدوث الاجتماع البشري، فلا يمكن أن يقام هذا الاجتماع من دون توفُّر المياه والتربة للزراعة أو الرعي، ولقد أثبت التاريخ بحركته وتحولاته مصداقية فكرة العامل المادي لقيام الحضارات، كما أنَّ القرآن الكريم أوضح أهمية الماء في استمرار حياة الإنسان، فنجد مثلاً قوله تعالى:)الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(،[11] وكذلك في قوله تعالى:)وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(،[12] وغيرها من الآيات التي تؤكّد أنَّ القرآن الكريم أشار إلى أهمية العنصر المادي في قيام الحياة والحضارة الإنسانية.

يمكننا القول بأن فلسفة العمران التي أوجدها ابن خلدون تقوم على تناغمٍ وانسجامٍ بين قوانين الطبيعة وحركة التاريخ وتطوره من جهة، وبين الأساس الديني لنشأة الإنسان المفطور في أصل وجوده على الاجتماع والذي بيَّنه القرآن الكريم، حيث جاء في قوله تعالى:)يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا(،[13] إذ تشير هذه الآية – وعدد من الآيات- إلى أنَّ البشر جميعاً خلقوا من نَفْس واحدة، وأنَّهم تفرَّعوا منها إلى أزواج، ومنها إلى رجال ونساء، ممَّا يظهر تلاحمهم وتشابكهم مع بعضهم البعض، وهذا يعكس الطبيعة الاجتماعية للإنسان، وضرورة وجود العلاقات الاجتماعية والتعاون بين الأفراد؛ لبناء المجتمع وتحقيق السلام والازدهار، فابن خلدون كان مؤرخاً وفيلسوفاً وسياسياً، وكتبه كانت

10 هشام عليوان، **كيف ابتدع ابن خلدون علم العمران** (الرباط: مجلة إضافات العدد٦٤، ربيع ٢٠١٩م)، ص٩٩.

11 البقرة ٢/٢٢.

12 الأنعام ٦/٩٩.

13 النساء ٤/١.

في الغالب تتناول تحليلاته للتاريخ والسياسة والاجتماع، ومع ذلك، كان للقرآن الكريم والدين الإسلامي بشكل عام تأثير عميق على الفكر العربي والإسلامي في تلك العصور، فالدين والتفكير الإسلامي جزء أساسي من الحياة اليومية والفكر العلمي، وقد تأثَّرت أفكار العلماء والفلاسفة الإسلاميين بالقرآن الكريم والسنة النبوية والتراث الإسلامي الغني.

٣. حقيقة العمران:

لقد استند ابن خلدون في علمِه الجديد إلى جملةٍ من العوامل، نقسِّمها إلى نوعين، هما:

النوع الأول، عوامل سيكولوجية: والتي من شأنها أن تدفع بالذات الإنسانيَّة للظهور في الواقع، وتغيير مسيرة الأحداث، يظهر هذا في حديثه عن سيرورة قيام الدُّول وسقوطها، كما أنَّ الاجتماع البشريَّ يُمثلُ حاجةً سيكولوجيةً، ذلك لأنَّه طبعٌ في الإنسان مفطورٌ عليه، ويتوق إليه مع أقرانه، حيث جاء في الكتاب الأول من المقدِّمة بأنَّ "الاجتماع الإنسانيَّ ضروريٌّ، ويعبِّر الحكماء عن هذا بقولهم: "الإنسان مدنيٌّ بالطبع"، أي لابدَّ له من الاجتماع الذي هو المدينة".[١٤]

فقد عاد ابن خلدون إلى كتاب (السياسة) لأرسطو، لتأكيد أهمية الاجتماع، وحاجة الإنسان له، للتفاعل مع الآخرين، والتعاون في سبيل تحقيق إشباع الحاجات، فالاجتماع سمةٌ إنسانيةٌ، لأنَّ الإنسان ذو طبيعةٍ مختلفةٍ عن بقية الموجودات، فهو مركَّبٌ من جانبٍ نفسيّ في شخصيته، ويسعى إلى تحقيق الهدوء والسكينة لهُ، حيث يرى بأنَّ العمران ما هو إلا "التَّساكن والتَّنازلُ في مِصْرٍ، أو صلةٌ للأُنس بالعشير، واقتضاءِ الحاجات، لِما في طباعهم من التعاون على المعاش"،[١٥] فالنفس الإنسانية موجودةٌ، وهي مستعدةٌ لتقبُّل العالم الخارجيّ بصورِه المختلفة، وبذلك فهي قادرةٌ على التفاعل مع البيئة المحيطة، لأنَّها مزوَّدةٌ بآلة تفكيرٍ قادرةٍ على الغوص في كنه الأشياء وفحصها، وهذه الآلة هي العقل، فابن خلدون قال عن النفس الإنسانية، إنَّ "صورتها هي التي يتمُّ بها وجودها، وهي عين الإدراك والتعقُّل، فهي توجد أولاً بالقوة، وتكون مستعدةً للإدراك، وقبول تصوُّرات العالم بما فيه من صورٍ كليةٍ وجزئيةٍ، كل ما هو ناتج عن ردود المدركات الحسية إلى أن تنتقل إلى الحالة العقلية"،[١٦] هذه الأفعال المتعقِّلة بعد تكرارها تصبح ملكاتٍ، ويغدو لها آثارٌ في النفس البشريَّة، فما النفس إلا مجموعة من الملكات.

النوع الثاني، عوامل موضوعية: ويذهب ابن خلدون إلى أنَّ للبيئة المحيطة بالفرد دوراً كبيراً وتأثيراً

14 عبدالرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، ط٢، ٢٠٠٧م)، ص٦٤.

15 المصدر السابق، ص٥٤.

16 يُنظر: السيد علي شتا، **ظاهرية علم الاجتماع الإنساني عند ابن خلدون** (الإسكندرية: المكتبة المصرية، ط١، ٢٠٠١م)، ص٣٦١ بتصرف.

بالغاً على حياة العمران وحيويته، يظهر ذلك من خلال تقسيمه للأرض إلى أقاليم سبعة، فقد شرحَ طبيعة كلِّ إقليمٍ، وأثرهُ بحياةِ ساكنيهِ، وترى الباحثة الاجتماعيَّة الروسيَّة سفتيلانا باتسييفا أنَّ "العوامل الأكثر جوهريةً وطبيعيةً وتأثيراً على الصفات الجسميَّة والنفسيَّة للناس، هي الأحوال الجويَّة والحراريَّة ... ونظرية الإقليم عند ابن خلدون هي نظرية المناطق الجغرافيَّة ذات الشكل الموحّد للأحوال الجويَّة والحراريَّة"،[17] فالإقليم عند ابن خلدون نمطٌ واحدٌ من الناحية الجويَّة، أو متجانسٌ من الناحية الحراريَّة فيما بين أجزائه، مع بعض الاختلافات على أطرافه، بسبب مجاورته لإقليمٍ آخر مختلفٍ عنه بيئياً، كما أنَّ ابن خلدون يشرح التأثيرات الجويَّة والحراريَّة على الناس، وعلى لون أجسادهم، وكيف يتحكَّم بأمزجتهم، وكذلك كيف يساهم في تحديد نوع العمل، وقد يفرض عليهم نمطاً محدَّداً من الأعمال أو قد يمنعهم من ممارسة نشاطٍ يُمارس بغيره من الأقاليم الأخرى، وبهذا يؤثّر على ما يسمى بالتطوُّر التَّاريخي للمجتمع.

كما تكلَّم على اختلاف المأكل والمشرب بين الأقاليم، وبين سكَّان الجبال والساحل والصحراء، إذ يُرجع ابن خلدون ذلك قرآنياً إلى قولهِ تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}،[18] وهنا يدمج ابن خلدون سورتين من سور القرآن الكريم، إذ إن قولهِ تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}،[19] وهي من سورة آل عمران، الآية (٠٩١)، ولم يكملها بقوله تعالى: "لآيات لأولي الألباب"، حيث جاء بجزءٍ من آية أخرى من سورة الروم، الآية (٢٢)، والتي قال فيها جل جلاله: "لآيات للعالمين". فقد أراد ابن خلدون إيصال رسالةٍ دينيةٍ مفادها بأنَّ الله سبحانه وتعالى يخاطب العالمين جميعاً، فالرسالة لكلِّ البشريَّة، دون استثناء أحد، مميزاً الاختلافات بين الليل والنهار، أو بين الشرق والغرب، أي بين المناطق المختلفة طبيعيَّاً أو جغرافيَّاً.

كما يشير ابن خلدون إلى أنَّ الاختلافات البيئيَّة بين البشر تصل إلى درجة التناقض الكامل، بين بعض الأقاليم، وأيضاً مرجعاً ذلك إلى قوله تعالى: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}،[20] إذ يوضّح أنَّ للبيئة دوراً كبيراً في العمران فقد تعوق التطوُّر الطبيعيَّ للمجتمع، وتؤثّر على أخلاق المجتمع، فيذهب للقول: "نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش، الكثيرة الزرع والضرع والأُدْم والفواكه، يتَّصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم"،[21] ويتابع ابن خلدون حديثه في وصف تأثير العوامل الموضوعيَّة على العمران البشريّ، ويدخل في مفهوم العبادة، فيذكر كيفيَّة تأثير البيئة على العبادة، إذ يقرر أنَّ المتقشفين هم أكثر وأشدُّ تمسُّكاً بالدين

17 باتسييفا، سفتيلانا، **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**، ترجمة، رضوان إبراهيم، مراجعة، سمية محمد موسى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٦٨٩١م)، ص٧٦١.

18 الروم ٠٣/٢٢.

19 آل عمران ٣/٠٩١.

20 النحل ٦١/٨.

21 عبدالرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، درويش الجويدي (بيروت: المكتبة العصرية، ط٢، ٧٩٩١م)، ص٦٨.

من غيرهم من الجماعات التي تكون أكثر ترفاً وبيئتهم أكثر رطوبةً وخصوبةً، فكلَّما كانت الحياة أشد قسوةً يكون الجسد أكثر استقامةً على الدين، ثم ليصل في كتابه المقدمة إلى نتيجة مفادها أنَّ "الجوع أصلحُ للبدن"،[٢٢] ومعنى ذلك أنه كلَّما كان المأكل أقلّ يكون الجسد أقوى وأكثر مقاومةً لقسوة الطبيعة والحرارة.

الخاتمة والنتائج:

بالاستناد إلى الدراسة التحليلية لنظرية ابن خلدون في العمران البشري وصلتها بالفكر الإسلامي نخلص إلى مجموعة من النتائج يمكننا ذكر أبرزها:

١- لقد كان لابن خلدون تأثير بارز في إبداع مجال علميّ خاصّ به، حيث جسَّدت أفكاره ونظرياته المبتكرة فهمًا متقدّمًا للتنظيم والتخطيط العمراني والاجتماعي، وقد أظهرت الدراسة مدى رسوخ علاقة ابن خلدون بالفكر الإسلامي، حيث تأثَّر بمبادئ الإسلام في رؤيته لعلم العمران، وسعى إلى تطبيق قيمه في نظريته.

٢- من خلال تحليل النصوص الواردة في كتابات ابن خلدون، وجدنا أنَّه قد نمَّى فهماً عميقاً لأسباب النشوء والتطور الحضاري، وقدَّم رؤيةً شاملةً لدور العوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العمران البشري.

٣- امتاز علم العمران الخلدوني بغزارة فائدته بوصفه علماً وضعياً جديداً، أَوْلى دراسة الواقع أهمية كبيرة، واستفاد من سيرورة التاريخ البشري، وبذلك كان غرض هذا العلم مزدوجاً، فهو أولاً وضع معايير خاصة من أجل تصحيح الأخبار التاريخية وتفنيدها، وثانياً، معرفة طبيعة الواقعات الاجتماعية التي تشمل التاريخ.

٤- لقد كان لكتابات ابن خلدون لاسيما كتاب المقدِّمة أثرٌ كبيرٌ في التأسيس لعلم الاجتماع الحديث، وذلك للمنهجية العلمية التي قدَّمها ابن خلدون في فهم المجتمع البشري، وربط هذه المنهجية بمصادر النقل الإسلامي الصادرة من القرآن الكريم، الأمر الذي منح علمه مصداقية أكبر، كما تناول في نظريته دور البيئة والعوامل الاجتماعية والثقافية في تكوين الهويات الجماعية، وتشكيل السلوك الاجتماعي.

٥- استندت نظرية العمران الخلدوني إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه، حيث لا تجد خلال قراءتها أيَّ تجاوز للقيم الإسلامية، ممَّا يفسِّر محاولة ابن خلدون تحقيق نهوض أو صحوة للحضارة الإسلامية التي

22 المصدر السابق، ص٧٨.

كانت تعاني في زمنه من كثرة الهزائم والانكسارات.

٦- تمتَّع فكر ابن خلدون بسعة انتشار كبيرة، وذلك لعدة أسباب لعلَّ أولها اتساق فكره مع الفكر الإسلامي، ممَّا دفع الناس للبحث في نظريته عن حلول بغاية النهوض، كما أن مكانة ابن خلدون السياسية والدينية مكَّنتهُ من نشر أفكاره بشكلٍ أسهل وأسرع، إضافة إلى أنَّ تنقله بين المشرق والمغرب العربي والأندلس، واتساع معارفهُ كان بمثابة إعلان لعلمهِ الجديد.

المصادر والمراجع بالعربية:

القرآن الكريم.

باتسييفا، سفتيلانا، **العمران البشري في مقدمة ابن خلدون**، ترجمة، رضوان إبراهيم، مراجعة، سمية محمد موسى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

تاج الدين عبدالوهاب بن علي السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى، الجزء٦**، تحقيق، محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.

رياض عزيز هادي، **مفهوم الدولة ونشؤها عند ابن خلدون**. جامعة بغداد: مجلة العلوم السياسية والقانونية، العدد٣، ١٩٧٧م.

السيد علي شتا، **ظاهرية علم الاجتماع الإنساني عند ابن خلدون**. الإسكندرية: المكتبة المصرية، ط١، ٢٠٠١م.

عبد الرحمن بن خلدون، **المقدمة**. بيروت: منشورات دار إحياء التراث العربي، د.ت.

عبد الرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**. بيروت: منشورات دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

عبدالرحمن بن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق، درويش الجويدي. بيروت: المكتبة العصرية، ط٢، ١٩٩٧م.

هشام عليوان، **كيف ابتدع ابن خلدون علم العمران**. الرباط: مجلة إضافات العدد٤٦، ربيع ٢٠١٩م.

Kaynakça

Alquran Alkarim.

Alsayid Eali Shataa, Zahiriat Eilm Aliajtimae Al'iinsanii Eind Abn Khaldun. Al'iiskandiriati: Almaktabat Almisriati, Ta1, 2001.

Batsiifa, Siftilana, Aleumran Albasharii Fi Muqadimat Aibn Khaldun, Tarjamata, Ridwan 'Iibrahim, Murajaeatu, Sumyat Muhamad Musaa. Alqahirati: Alhayyat Almisriat Aleamat Lilkitabi, 1986.

Eabd Alrahman Bin Khaldun, Almuqadimatu. Bayrut: Manshurat Dar 'Iihya' Alturath Alearabii, Da.T.

Eabd Alrahman Bin Khaldun, Muqadimat Abn Khaldun. Bayruta: Manshurat Dar Alkutub Aleilmiati, 1993.

Eabdalrahman Bin Khaldun, Muqadimat Abn Khaldun, Tahqiqu, Darwish Aljuiidii. Bayruta: Almaktabat Aleasriati, Ta2, 1997.

Hisham Eilywan, Kayf Abtadae Abn Khaldun Eilm Aleumrani. Alribati: Majalat 'Iidafat Aleudadi46, Rabie 2019.

Riad Eaziz Hadi, Mafhum Aldawlat Wanashwuha Eind Aibn Khaldun. Jamieat Baghdad: Majalat Aleulum Alsiyasiat Walqanuniat, Aleudadu3, 1977.

Taj Aldiyn Eabdalwahaab Bin Eali Alsabki, Tabaqat Alshaafieiat Alkubraa, Aljuz'i6, Tahqiqu, Mahmud Altanahi Waeabd Alfataah Alhalu. Alqahirata: Dar 'Iihya' Alkutub Alearabiati, Da.T